من أنت ؟

شارل مالك[1]

أستاذ مساعد الفلسفة بجامعة بيروت الأميركية

كل شيء في حياتنا يتوقف في النهاية على تصورنا لأنفسنا ، فإن شرحت لي كيف تنظر الى نفسك ، استطعت أن أعين لك جميع خطوط حياتك تعييناً وافياً . ولذلك فإن أحببت أن أزعم اليوم أمامكم ان الانسان صانع نفسه ، فإنما أعني بهذا أن جميع مظاهر حياته ، من سلوك وتفكير وعاطفة ، إنما تنحدر في النهاية من فكرته عن نفسه

وتتصارع اليوم في البلاد الغربية — أعني في عقلي وعقلكم — نظرات مختلفة الى طبيعة الانسان ، تحاول كل واحدة منها أن تتشعب في متضمناتها الى ان تحيط بكامل الحياة . ومرادي أن أتناول بعضاً من هذه النظرات بالشرح والتحليل محاولاً أن أخلص منها جميعاً الى نظرة هي ، في رأيي ونظري ، النظرة الصائبة عن طبيعة الانسان ، أعني طبيعتي أنا ، وطبيعة كل واحد منكم فرداً فرداً

ولن يسمح لي مجال الحديث ولا مناسبته بأن أتعمق في هذا البحث الأساسي ، لأن إيفاء هذا الموضوع حقه يقتضي مني بعد كل نظرة أن أنقدها على ضوء النظرة الأخيرة التي آخذ بها حتى تظهر بالعيان أخطاء جميع النظرات التي تقصر عن الحقيقة الكاملة كما هي . وعملية النقد هذه تستغرق وقتاً وفراغاً ليسا مع الأسف في متناول حريتي . لذلك سأقتصر في هذا الخطاب على عرض النظرات عرضاً موضوعياً ، مكتفياً بمجرد التلميح هنا وهنالك خلال بحثي الى الخطوط النقدية الاساسية التي لو كان لدي متسع من الوقت ، لرسمتها بأوفى ما أستطيع من الدقة والضبط ، مرجئاً هذا الرسم الى فرصة كتابية أو خطابية أخرى

النظرة العضوية

أما النظرة الأولى فهي ما أطلق عليها عبارة « النظرة العضوية » . هذه النظرة تعد الانسان في مرتبة الأولى حيواناً ، مؤكدة على وظائف أعضاء جسمه في تعيين كيانه ، فإن فكر أصحابها بالتفكير مثلاً فلا يحصرونه إلا خلجات أعصاب تتفاعل بعضها مع بعض تفاعلاً كيميائياً

[1] محاضرة ألقيت في منتدى وست هول بالجامعة الأميركية في بيروت يوم ٢٦ ابريل سنة [illegible]

— كهربائيًا ، وان « ينكروا » بالمظاهر الروحية ، كالعلم والفن والفلسفة والدين ، فلا يرون في هذه إلا أدوات لارضاء شهوات الانسان الجسدية . فالانسان بحسب هذه النظرة ، هو حيوان مركب لا يوجد إلا لتحقيق اشباع جسده . فهو انما يفكر ويعمل ويخطط الخطط لكي يوفر أكثر الأمور الوسائل التي تمكنه من سد حاجاته الحيوانية ، فنحن نعيش لكي نشبع معدنا طعاماً ، ونكفي غرائزنا استمتاعاً . وبما أن الجسد هو هكذا محور كياننا ، وجب علينا بذل قصارى جهدنا اعتناء به ومحافظة عليه . ولذلك تبرز القيم الجسدية بروزاً واضحاً في التقديرات النهائية لهذه النظرة . أما تلاميذ هذه الفلسفة فهم كل من اتخذ الجسد المعيار الأول في الأحكام الأخيرة ، كبعض الأطباء مثلاً وبعض البيولوجيين والفسيولوجيين والسلوكيين ، وكذلك كل انسان يعتمد في النهاية على القوالب العضوية في تفكيره عن نفسه . ولذلك اذا نحن سألنا أحد القائلين بهذه الفلسفة العضوية : « من أنت ؟ » ، وكان أميناً مع نفسه صريحاً معنا قادراً على ان يضع نظرته النهائية الى نفسه في قالب كلامي مسؤول ، أجابنا على الشكل الآتي : —

« أنا آلة عضوية مرهفة الدقة معقدة التركيب تتفاعل بطريقة دائمة مع محيطها الخارجي والداخلي . لي نزعات وغرائز طبيعية — حيوانية يجب ارضاؤها . أما الغاية القصوى من حياتي والمعنى الأخير لوجودي فهو اللذة الجسدية الناجمة عن اشباع هذه الغرائز . ولذلك يجب أن أحشد جميع قواي لكي أستمتع في حياتي بأكبر قسط ممكن من شهوات جسدي ، وإلا راحت حياتي عبثاً باطلاً . فأنا أنا بقدر ما أكون حيواناً »

النظرة التاريخية

هذا هو التصور العام للنظرة العضوية الى الانسان . والنظرة الثانية التي أريد عرضها هي « النظرة التاريخية » ، أعني تلك الفلسفة التي تعين كيان الانسان بواسطة القوالب التحليلية التاريخية . ترعم هذه النظرة أنها تفهم الانسان فهماً كاملاً على ضوء التاريخ ، أي باعتبار « العوامل » و « التيارات » و « المجاري » و « الأسباب » و « المؤثرات » و « الظروف » التي انتهت الى خلق الانسان . فهي لذلك لا تكتفي بتحليل الحوادث والأشياء غير الانسانية تحليلاً تاريخياً — سببيًا ، بل تطبق هذا التحليل على الانسان ذاته ، ذاهبة إلى أن الانسان في محض كيانه الانساني ، وليد العوامل والتيارات التاريخية . وأنا بهذا التحديد العام للنظرة التاريخية اجعلها تشمل النظرات التطورية على العموم ، أي جميع المذاهب التي تؤلف حاضر الانسان من تآزر العلل الفاعلة في ماضيه ، سواء أشخصيًا قريباً كان هذا الماضي ، كما في التحليل النفسي ، أم اجتماعيًا — تاريخيًا بعيداً ، كما في تاريخ المجتمع التطوري ، أم عضويًا — تطوريًا ، كما في نظرية النشوء والارتقاء . جميع هذه المذاهب على اختلافها في الأمور الجزئية ، تتفق في أنها جميعاً

تعرض من الانسان شخصاً معيناً واقعياً بالاضافة الى الظروف والأسباب الماضية التي تضافرت على خلقه

فأنت لا تكاد تعرض الانسان واحداً أمام الرجل التاريخي حتى يتجه عقله في الحال نحو الماضي باحثاً فيه عما يسميه «أسباباً» يضيف اليها في تعليله للظاهرة القائمة أمامه. فأنا «من» أنا لأن والديّ وتربيتي وماضيّ كانت كذا وكذا. والعرب اليوم «من» هم لأن ماضيهم القريب والبعيد، كان بالتفصيل كذا وكذا. والانسان على العموم هو «من» هو لأن العوامل الطبيعية التي خلقته تدريجياً كانت كذا وكذا. وهكذا يذوب الانسان الشخصي الحي المباشر في هذا الماضي الخصب في عوامله، الزاخر بتياراته. ولذلك اذا نحن تقدمنا من الرجل التاريخي وسألناه: من أنت؟، وكان أميناً مع نفسه صريحاً معنا قادراً على أن يصوغ نظرته الأساسية الى نفسه في قالب كلامي مسؤول، أجابنا على الشكل الآتي: «أنا ابن التاريخ لا أفهم نفسي إلا أثراً لهذه المجاري التاريخية التي دخلت في تكويني. جسدي هذا ورثته من أبويّ وبالتالي من الجنس البشري الذي أنتمي اليه. أما خلقي وأفكاري وعاداتي ولغتي وديني، فهذه جميعاً ورثتها عن آبائي وأجدادي، ولا طاقة لي البتة على ردها أو تغييرها. فأنا لا أفهم ناحية واحدة من كياني الشخصي الا اذا أرجعتها شيئاً فشيئاً الى دقائقها العريقة في القدم ولذلك أجدني تحت رحمة ماضيّ، مكبلاً بقيوده وأسبابه، لا أستطيع أن أحيد عن تعيينه لذاتي قيد أنملة. فعندما أتقهقر بنفسي الى ظروفي الماضية، عندما أذيب كياني في التيارات التي نشأت منها، عندما أتطلع بذاتي في متاهات الماضي المظلم الغامض القصي، عندما أقارن وضعي الحاضر بأوضاع أسلافي السابقة، عندما أعود بنفسي شيئاً فشيئاً الى الوراء حتى أتلاشى في لجة لا تختلف في القدم والظلام والبساطة عن لا شيء، عندئذ فقط أفهم نفسي وأعرف من أنا؟»

النظرة الصوفية

هذه اذن هي النظرة التاريخية الى الانسان. أما النظرة الثالثة التي أود أن أمر عليها مروراً سريعاً فهي ما أسميه «النظرة الصوفية». الصوفية تؤكد على أن بين الانسان وبين الكون وحدة نوعية، فأنا أنا بقدر ما أشعر بهذه الوحدة وأعيش وفق مقتضياتها. فهذا الخشب لا يختلف نوعاً عني أو عنك. وهذه الدودة لا تختلف كيفية عن سقراط أو عن دوستيافسكي، وهذا اللون الأزرق لا يختلف صفة عن رواية هملت أو عن السمفونية الخامسة لبيتهوفن. واذن فالكائنات جميعاً تقع في النهاية بموجب هذه النظرة على نفس الدرجة من الوجود. وما غاية الانسان القصوى الا أن يشعر، وهو مغمض العينين، بتلك الوحدة الدافقة التي لا شك تسطو

عليه اذا ما شعر بانغلاق الخشب وقرابة الدودة والألوان . وبما أن الصوفية تطمس هكذا التمييزات الكيانية بين الأشياء ، فهي لا تستطيع أن تميز شخصية كل شيء بحد ذاته فاصلة اياه فصلاً مطلقاً عن أي شيء آخر . ولذلك تنقصها مقدرة التمييز بين الخطأ وبين الصواب ، بين الخيال وبين الواقع ، بين الوهم وبين الحقيقة ، غير عابئة بالبحث عن مقياس صحيح تستند اليه في تطبيق هذا التمييز . اما الصوفيون في البلاد العربية فكثيرون ، مع انهم قد لا يطلقون هذه اللفظة على انفسهم . فكل رجل يتخذ شعوره وعاطفته وخياله محكاً للحقيقة هو صوفي في جوهره ، وكذلك كل رجل يبغض العقل ويهرب من التمييزات الفكرية غير مؤمن بالعلم والفلسفة . وأنا أزعم ان الشعراء على العموم هم صوفيون في نظرتهم الى أنفسهم ؟ ومعلوم ان الناشئ العربي يعج بالشعر والشعراء واذا نحن تقدمنا من الصوفي وسألناه بمودة واحترام : من أنت ؟ ، وكان أميناً مع نفسه صريحاً معنا قادراً على ان يعبر عن نظرته الى نفسه بقالب كلامي مسؤول أجابنا على الشكل الآتي : — « أنا ؟ ! لا أدري من أنا ! ولكني أشعر في بعض الأحيان بألفة تامة بيني وبين هذا الكون . في هذه اللحظات النادرة أتحد بالكون اتحاداً وثيقاً وأعرف من أنا : أعرف أني والكون ذات واحدة . عندئذ تختفي التمييزات الحية — العقلية بين الأشياء ويصبح كل شيء واحداً احداً . في هذه الحال أغيب عن الوعي العادي وأغوص في لجة من اللاوعي تتفجر منها نفسي عن جداول رقراقة من الشعر الخالص ترن رنيناً موسيقياً لجميع ذرات الوجود . وهذه هي غاية وجود الانسان : أن يكون الكون ! وكل كيان دون هذا وهم وخداع . أما اذا عدت فوق كل هذا وسألتني من أنا ؟ ولماذا وجدت ؟ وهل لي روح ؟ وما هي علاقة روحي بجسدي ، وعقلي بحسي ؟ فأجيبك على كل هذا بلسان أبي ماضي :

جئت ، لا أعلم من أين ، ولكني أتيتُ
ولقد أبصرت قدامي طريقاً فمشيتُ
وسأبقى سائراً إن شئت هذا أم أبيتُ
كيف جئتُ ؟ كيف أبصرتُ طريقي ؟ .. لستُ أدري

أنا لا أذكر شيئاً من حياتي الماضيه
أنا لا أعرف شيئاً من حياتي الآتيه
لي ذات غير أني لست أدري ما هيه
فمتى تعرف ذاتي كنه ذاتي ؟ لستُ أدري »

نظرة الاشتراكية المادية

والنظرة الرابعة الى الانسان هي « نظرة الاشتراكية المادية » ولا يعنيني من الاشتراكية في هذا الحديث الا ما تتضمنه من عقيدة أساسية بشأن طبيعة الانسان فكل ما تقوله ، مثلاً ، عن توزيع الثروة توزيعاً عادلاً وعن ضرورة ضمان العدل الاجتماعي وعن الغاء النظام الرأسمالي الطبقي وعن القضاء على الاستعمار وعلى امتلاك الحكومة لمرافق الثروة ، كل ما تذهب اليه من ان التاريخ حركة وانتقال دائمان تتحكم فيهما القاعدة الديالكتيكية التي كشفها كارل ماركس، جميع هذه العقائد لا أريد ان أتصدى لها هنا ، لأن هدفي المقيد بحثي هو أن استخرج من الاشتراكية المادية الفكرة التي تنتهي اليها بشأن الكيان الانساني ، يقيناً مني أن كل شيء آخر تذهب اليه يتوقف آخر الامر على نظرتها الى الانسان . فما هو أو بالاحرى من هو الانسان في نظرة الاشتراكية المادية ؟ الانسان — أعني أنا وأنت — هو بحسب الاشتراكية المادية من « المادة » الهائلة نفسها التي يتألف منها هذا الكون المادي ، ونواميس هذا الكون هي بعينها النواميس التي تضبط حياته بيد من حديد . نشأ الانسان من الحيوان ، وتطور وفقاً للسنن الداروينية المألوفة ، ولذلك فالنواميس الفيسيولوجية التي تتحكم في سلوك الحيوان تنتقل بجملتها الى الانسان مسيّرة كيانه . فالعقل ومظاهره ، والروح واعلاؤها عن نفسها ، وكل ما ينطوي تحت لفظة الثقافة ليس في الحقيقة سوى مظهر مادي لسلوك هذا الجسم المادي المؤلف من دماغ وعضلات وعظام . ولذلك فللانسان حاجات عضوية أساسية ، كشهوة المعدة وشهوة الغريزة الجنسية ، لا مفر له من إشباعها . من هنا نفهم كيف ان الأنانية هي القاعدة الأولى لتصرف الانسان ، لأن الانانية التي تقتضيها ضرورة اشباع حاجاته وشهواته . ومن هذه الضرورة الطبيعية تنشأ حتماً النزعات بين الأفراد والجماعات ، وتتطور بحسب الناموس الديالكتيكي الذي شرحه كارل ماركس في مصنفاته ، ذلك جوهره على الفلسفة الهيجلية سلفه . ولذلك اذا نحن تقدمنا من الاشتراكي المادي وطرحنا عليه هذا السؤال : من أنت ؟ ، وكان أميناً مع نفسه صريحاً معنا قادراً على ان يركب نظريته الأساسية الى نفسه في قالب كلامي مسؤول ، أجابنا على الشكل الآتي : — « أنا في الدرجة الاولى كائن اقتصادي — مادي ، لي حاجات في الحياة يجب اشباعها . مشيئتي الاولى هي الانانية ، أو بالأحرى مصلحة الطبقة الاجتماعية التي أنتمي اليها . في سبيل خدمة هذه المصلحة أسوّغ كل شيء لان قاعدتي الأدبية الأساسية هي ان الغاية تسوّغ الواسطة . أما القول المعسول بالمبادىء والاخلاق والقيم الروحية فهذا كله خداع وتضليل من قبل الطبقة المسيطرة . فما أنت في كياني سوى ظاهرة مادية بحتة تخضع لنواميس المادة والحياة والاجتماع ، وخصوصاً للناموس الديالكتيكي — المادي كما يتمثل في حرب الطبقات .

من كل هذا ترى اني من جميع جوانب حياتي عبد طائع لقوى طبيعية لا أثر قط لإرادتي فيها، عبد لنواميس المادة، عبد لنواميس الحياة، عبد لحاجاتي وشهواتي، عبد لأنانيتي، عبد، فوق كل شيء، لمصلحة الطبقة الاقتصادية — الاجتماعية التي انتسب اليها. هذه الطبقة التي تفرض عليّ من النظم والأفكار والمثل ما يجب عليّ أن أتبناه وأسعى الى تحقيقه ومن الحركات التاريخية ما يجب عليّ أن أنضوي تحت لوائه »

النظرة القومية

وتجاري هذه النظرة الاشتراكية المادية في عالمنا الحاضر حركة لا تقل عنها إصالة وعمقاً، هي «الحركة القومية». ولا أظن باحثاً يستطيع ان يعالج موضوعاً اساسياً واحداً في هذا العصر دون أن يصطدم بادىء ذي بدء بالقومية ومظاهرها. وما مهدتُ به الى النظرة الاشتراكية يصح كذلك أن أمهد به هنا، وهو اني لا أتمس من القومية الا الفروض الأساسية التي تفرضها بشأن طبيعة الانسان، لأن الانسان، كما قلت، يعين بنظرته الى نفسه جميع نظراته الى الأشياء. القومية تقول إن الانسان في ذاته قومي، أي انه لا يتمم كيانه الا بانتسابه انتساباً فعالاً الى أمة معينة. والأمة بالمعنى القومي هي جماعة من البشر تؤلف بينهم على العموم جامعة اللغة الواحدة والماضي الواحد والعادات والتقاليد الواحدة والتفاعل الاجتماعي الواحد والاهداف الواحدة، وفي معظم الأحيان كذلك جامعة الدم الواحد والدين الواحد والحكومة الواحدة. هذه الوحدة التاريخية الاجتماعية المركبة تشكل ثقافة واحدة تنتظم فيها مَلَكات الأمة جميعاً. فالانسان اذن انسان بقدر ما يندمج في قومه اندماجاً صميماً، مشتركاً معهم من أعماق قلبه في كل ما يجتازونه من محن وأزمات. «العصبية القومية»، «الغيرة القومية»، «الشرف القومي»، «المصلحة القومية»، «الزهو القومي»، «الرسالة القومية»، «الوعي القومي» — هذه هي الفكر الاولى التي تقيس عقل الرجل القومي، وهي جميعاً تفرض ان الانسان، بقدر ما يريد أن يكون انساناً، يجب ان يمارس مسؤوليته ووفاءه في الدرجة الاولى نحو أمته. واذن اذا نحن سألنا الرجل القومي — أعني اذا سألنا بعضنا بعضاً — «من أنت؟» وكان أميناً مع نفسه صريحاً معنا قادراً على أن يضع نظرته الى نفسه في قالب كلامي مسؤول، أجاب على الشكل الآتي: «أنا لا أعرف عن حقيقة نفسي الا أني انتمي الى هذه الأمة المجيدة. أذبّ عنها الضيم، محاولاً جهد طاقتي ان أرفع شأنها بين الأمم. لأمتي ماضٍ عريق في القدم والمجد أزهى به، ولها كذلك بإذن الله مستقبل باهر ستؤدي فيه رسالتها المنقذة الى الأمم طراً. من واجبي ان أفكر تفكيراً قومياً وان أحيا حياة قومية، وهذا يقتضي ان أقدر الأشياء على ضوء مصلحة أمتي العليا، فما يتفق مع هذه المصلحة هو خير، وما ينافي منها هو شر،

وليس ثمة في الحقيقة ميزان للخير والشر غير هذا الميزان القومي . العضوية والفسيولوجية والسلوكية لا تقيد قوميتي كثيراً أو قليلاً ، أما التاريخية فمن صميم قوميتي ؛ لأن أمتي من صانعي التاريخ ؛ ولهذا فأنا آخذ بها . ولي كذلك «صوفية قومية» خاصة غير صوفية الشعراء «فالكون لدي هو أمتي ذاتها لا أكثر ولا أقل ؛ وعندما تتحد مصلحتي بمصلحة أمتي ، عندما تختلج نفسي بكل ما تختلج به أمتي من آلام وآمال ؛ عندئذ أشعر بالسعادة القصوى . أما الاشتراكية فلا آخذ بها إلا اذا كانت اشتراكية قومية . أمتي اذن هي محور كياني كله ؛ منها أستمد وحيي ومن أجلها أحيا ومن أجلها أموت»

نظرة الناس

بقيت أخيراً نظرة اولئك الذين لا نظرة لهم ؛ اولئك الذين لا يعبأون بالنظر من أساسه فمن هم هؤلاء الذين لا نظر لهم ؛ والذين لا يريدون ان يكون لهم نظر ؟ من هم هؤلاء الذين بالرغم من أنهم يكرهون النظر والنظريات ، فكل شيء في كيانهم يتحدر حتماً في النهاية من عدم نظرهم الى أنفسهم ؟ هؤلاء هم ، أيها السادة ، الأغلبية الساحقة من البشر ، فأنا أعرف حق المعرفة ان أصحاب الرأي والنظر — وخصوصاً أصحاب ذاك الضرب من النظر الذي ينظر الانسان به الى نفسه — أقول إن أصحاب الرأي والنظر تكاد تبحث عنهم عبثاً بين بني البشر . أنا أعرف حق المعرفة أن العضويين والتاريخيين والصوفيين والاشتراكيين والقوميين ، وبكلمة أخرى أولئك الذين ينظرون ولو بعض النظر الى أنفسهم ، هم نفر من أقل الأنفار عدداً . أما معظم البشر فلا يعرف حقيقة نفسه ولا يتعرف اليها . ولكي نستطيع الاشارة فيما يلي الى هذه النظرة الثانية أطلق عليها عبارة «نظرة الناس» ولما ان الناس ، بهذا المعنى التشكيكي ، خائفون هاربون تائهون ، فنحن لا نستطيع ان نفرض أنهم أمينون مع أنفسهم ؛ ولا أنهم صريحون معنا . ولذلك لا يمكن أن نتوقع منهم تركيب نظرتهم الى أنفسهم في قالب كلامي مسؤول فنأخذ نحن على عاتقنا أمر هذا التركيب بالنيابة عنهم . فمن هم الناس ، وما هي نظرتهم الخاصة الى أنفسهم ؟

الناس ، حفظهم الله ، لا ينظرون الى أنفسهم ؛ وذلك لسببين : أولاً لأن ليس لهم نفس ينظرون اليها ، وثانياً لأنهم يؤثرون النظر الى غيرهم . وهذا الغير الذي ينظرون اليه هو عينه ما يسمونه «الناس» . فالناس لا يفكرون إلا بالناس ، بما فعل الناس وما قال الناس وما يحتمل أن يقول الناس . يرى الناس من حياتهم في الدرجة الأولى أن يشبعوا فضولهم وشهواتهم ، ولذلك فقد أصبحت لهم مجرد هذا الاشباع حياة بحت هم لا يعيشونه . [illegible] دونكم نفسكم في نفسك ؟ فهي تعيش لأعظم ما في صدره خالد ؟ [illegible] ؟

فبدأ الناس الأول هو تشدقن اللذة واجتناب الألم ، وكل ما هو شهي لذيذ ، لذيذ للجسد ولذيذ للعين ولذيذ للسمع ، يتدفق له لعابهم تدفقاً . أما كلام الناس فيفيض غزير من الثرثرة و « القيل والقال » يلتونه ذات اليمين وذات اليسار عن أي موضوع تطرحه عليهم ، فهم يعرفون أسرار الحرب الحاضرة كلها ، ويعرفون كذلك من الآن كيف ستتطور وكيف ستنتهي . واذا دققت فيما يقولون تلقه مشبعاً من أوله الى آخره بالغموض والتشتت والتهان ، وهذا بالطبع لا يضيرهم في شيء لأنهم على حد قولهم هم ، لم يدفعوا ثمن ما يقولون . وبتحالف مع هذه الثرثرة المتخبطة في الغالب طابع يطبع الناس في أخص كيانهم ، هو فضول شغوف بالأخبار الجديدة، والقصص الشهوانية ، والحكم المتناثرة غير المترابطة . ولا يرمي هذا الشغف الفضولي الى المعرفة الحقيقية أعني الى الاحاطة بطبائع الأشياء كما هي ، لأن الناس أبعد الناس عن الاهتمام بالحقيقة كما هي ، بل يرمي أولاً وآخراً الى مجرد الاطلاع الخارجي ، حتى يتمكن الناس من القول فيما بينهم أنهم عرفوا كذا وكذا، وهم في الحقيقة شيئاً حقيقياً واحداً عن كذا وكذا لا يعرفون . اما خيال الناس فمن الخصب والجموح بحيث لا يعرف حداً ولا قيداً اذ أبغض شيء على الناس ان يكبحوا جماح خيالهم في ضبط وتدريب والباعث الاول والاخير في خيالهم الشارد هو مصلحتهم الأنانية ، هذه المصلحة التي تملي على تفكيرهم خطوطه وتبسّ له آفاقه بحيث لا يستطيعون ان يتحرروا من ربقة طغيانها لحظة واحدة . أما عاطفتهم ومزاجهم فينتقلان مع الأيام ، بل مع الساعات والدقائق كريشة في مهب الريح من حال الى حال ، ويتخذان لوناً أثر لون ، حتى أنك تعجب هذا الخلق المرن الذي باستطاعته ان يكون كل شيء دفعة واحدة . أما نكاية الناس بالناس ودس الناس للناس وحسد الناس من الناس ، وعتاب الناس للناس وشماتة الناس بالناس وتمنين الناس للناس ، فحدث عن كل هذا ولا حرج . وأخيراً اذا راق للناس ان يستمعوا الى خطاب في حفلة من الحفلات فلا يهمهم من أمر الخطاب ما أثاره الخطيب من مشاكل حقيقية بقدر ما يهمهم ما تضمنه الخطاب من تنميق زائف وسجع خداع وأثارة للعواطف والشهوات ، فبدلاً من ان يتحدثوا بعد انتهاء الخطاب عن الموضوعات التي طرقها الخطيب بحد ذاتها تجدهم يثرثرون في غموض ما ورائه غموض عن لغة الخطيب وديباجته وأسلوبه والقائه و « لذيذ » شعره ، كأن الحياة بكاملها لا تمثل أمامهم إلا في الفن المسرحي والتركيب الشعري . وهكذا يقضي الناس ما يسمونهُ « حياتهم » بلا نفس ينظرون لها ، في شهوة طاغية وخيال جامح ، ثرثارين ، تائهين في وادي التعسف والابهام ، فضوليين ، متقلبين بين الأهواء والأغراض ، ساجدين لِل مزار التنميق السجعي ، منصرفين عن لباب الحياة الى قشور الحياة .

ولا يخطرنَّ ببالكم لحظة واحدة ان الناس صنف خاص من البشر غير صنفنا ، لا تظنوا

ان الناس يضعون مرتبة أحط من مرتبتنا. كلا فالناس لفظة كيانية نكتبكية أطلقها على نوع خاص من كيانك الشخصي حيناً . ذلك النوع الذي تكونه عندما تمثل الطور الذي وصفت . ونحن في الغالب نكون في هذه الحال ، لأن الظروف التي نحقق فيها أسمى كيان شخصي تمكن فوق نزوة الناس وحسدهم وإبهامهم ، هي لحظات نادرة جداً من حياتنا . وما نحن الناس بأكثرنا ، نكون عندما نعتبر أنفسنا أرفع من الناس

هذه هي النظرات الست التي أردت عرضها عن طبيعة الانسان . والآن أحب أن أذهب الى القول بأن هذه النظرات ، على تفاوتها الشاسع في الخطإ والصواب ، وفي الواقع والتجريد ، فهي جميعاً لا تصور الانسان على حقيقته . بل أذهب الى أبعد من هذا ، زاعماً أن الانسان انما يهرب من مجابهة حقيقة نفسه الأصلية اذا أمعن في تفسير نفسه على أساس أي من هذه النظرات

النظرة الاخيرة

يستوي الانسان على مرتبة كيانية يمتاز بها امتيازاً مطلقاً عن اي كائن سواه . هذه المرتبة الممتازة هي الشرط الأساسي لنهوض حق هذه النظرات الست التي شرحت . الانسان هو اولاً من هو ، ومن ثمّ هو « ما » تذهب اليه هذه النظرات . فمن هو الانسان في كيانه الأصلي ؟

الانسان — أعني أنا وأنت — يستخدم الآلات والأدوات من أجل غايات بعيدة بعقله ، فاذا نحن حذفنا وسائل الحياة البشرية ، من كلام وبيوت وسيارات الى ما هنالك من أدوات الحياة التي لا نهاية لها ، لم يبق منا شيء اسمه « انسان » واذن الانسان هو وسائل كيانه

لأن الانسان يهتم بشتى الامور فهو اليوم يهتم بشغله وغداً بزواجه ، وبعد غد بأولاده ، ولذلك تكتنف الانسان دائماً وابداً من جميع جوانب حياته مشاكل وهموم لا يستطيع الا أن يديرها بمفرداته او كله . فاذا أزلنا تماماً هموم الحياة الكيانية لم يبق منا شيء اسمه « انسان » . ولذلك فالانسان هو في صميم كيانه هموم ، ومن يهرب من هموم الحياة ومشاكلها يهرب في الحقيقة من انسانيته

الانسان هو الوحيد بين سائر الكائنات الذي يرمي عن عقل وبصيرة الى امكانيات قريبة او بعيدة . وهو لذلك يرسم الخطط عن وعي سابق محاولاً في الحال اتخاذ الاجراءات المنفذة لها . فاذا حذفنا امكانيات الانسان المترامية أمامه الى آفاق بعيدة او قريبة ، لم يبق منا شيء اسمه « انسان » . اذن فالانسان هو امكانيات كيانه ، وما الموت سوى فناء هذه الامكانيات

وبما ان امكانيات الحياة تقع في شيء اسمه « المستقبل » نجد الانسان مرتمياً فوق كل شيء بمصيره ومستقبله . فنحن لا يهمنا شيء على الاطلاق بقدر ما يهمنا أن نمد حجب الغيب لنقذ

الى ما يقصره لنا المستقبل، والانسان الذي لا يفكر في مستقبله ومستقبل من يحب ليس بانسان، كما أن الأمة التي لا تنزع في الدرجة الاولى الى مستقبلها ، مضحية بكل ما يتنافى مع ذلك من ماضيها مهما يكن هذا الماضي عزيزاً غالياً ، ليست بأمة حية ، ولن تكون «أمة المستقبل» وإذن فالانسان هو مستقبل وجوده ، ومن يُقفل مستقبله امامه لأي سبب من الأسباب، تسقط في الحال عنه انسانيته ، ويصبح مادة جامدة او عبداً لا ارادة له

ومن امكانيات الانسان أن يسقط الى مرتبة الناس مذيباً نفسه في ترثرتهم وفضولهم وغموضهم . وهذا بالفعل ما يحدث لكل واحد منا يومياً ، لأننا جميعاً بشر . ولكن في الوقت ذاته يستطيع الانسان أن يرتفع الى ذروة الكيان الأسمى ، حيث المسؤولية المطلقة في كل شيء . في هذا الكيان يرى الانسان نفسه كما هي ، مميزاً بين امكانياته الحقيقية وبين أحلامه الوهمية . واذا اختص الانسان امكانياته التي يستطيع في الحقيقة ان يقدم ويؤخر بها ، نابذاً أوهامه التي لا يقدر بشأنها أن يتخذ قراراً حاسماً واحداً ، عندئذ تنطلق نفسه حرة من قيود نفسه ، وتتجلى الأشياء أمامه بصفاء ما بعده صفاء . ولذلك فالانسان هو هذه الامكانية الثنائية إما سقوطه الى حضيض الناس وإما ارتفاعه الى أوج الكيان الأسمى

الانسان ، بقدر ما هو انسان ، دائماً وأبداً يفهم شيئاً ، سطحياً أو حقيقياً ، عن نفسه وعن عالمه . هذا الفهم العاقل يصاحبه في حياته منيراً له خطى سيره . فاذا حذفنا من الانسان عقله الفاهم لم يبق منا شيء اسمه «انسان» . وإذن فالانسان هو عقله وفهمه

لا يكون الانسان انساناً الا بالتفاعل الحيوي المتواصل مع الغير ، فالانسان ما دام انساناً لا بدّ أن يكون على تفاهم مع غيره ، سطحياً كان أم أصيلاً . أما اذا انفصل الانسان الى جزيرة نائية بعيداً عن التفاعل الاجتماعي المسؤول فسرعان ما تنتفي عنه انسانيته . واذا لاذ أحدنا بكهف ذاتي منفصلاً من تبعاته الاجتماعية الفعالة — وما أكثر الكهوف التي يختلقها الانسان هارباً متهرباً — خفت فيه مع الزمن حدة انسانيته ، وأخذ ينطق بالشعر الصوفي الذي لا ينم عن أي تقدير لحقائق الاجتماعية الصارخة . وإذن فالانسان هو تفاعله الاجتماعي ومسؤوليته الاجتماعية

يظل الانسان ، ما دام انساناً ، قلقاً على هذا ، وذاك من الكائنات التي تخصه ، ولكنه في صميم ذاته قلق في الدرجة الاولى على كيانه هو . ولا يوجد كائن غير الانسان يستطيع أن يقلق على وجوده ، الم يعرف بعد أن كائناً قضى ليله قلقاً على وجوده أو عدم وجوده . وإذن فالانسان هو قلقه الكياني

يختلج الانسان في حيرة وارتباك ، وهو اذ يحمل بشعر بجرمه ، فيتوب عنه أو لا يتوب .

وفي كلتا الحالتين يتوهم شيء في كيانه اسمه «الضمير» ويتألم به أحياناً تأنيب ضميره الى درجة من التلف ندماً الى الانتحار. ولم يعرف احد حيواناً تعلو وجهه علائم الحياء والخجل، ويلفه ضميره حتى ينتحر. لذلك اذا نحن حذفنا هذه الظاهر من كيان الانسان لم يبق منه شيء اسمه «انسان» بل شيء لا يصلح الا قرداً في غياهب السجون أو ملاجيء المجانين. واذاً فأنا خجلي وحيائي وشعوري بأجرامي وتأنيب ضميري، ومن يقتل في ضميري بعض انسانيتي في الصميم

يتمتع الانسان بحرية ذاتية يستطيع ان يمارسها فوق ما قد يقيده به الطبيعة والظروف ولولا هذه الحرية الأصلية لما تمكن الانسان في الماضي من التغلب على الطبيعة والظروف، ولما تمكن من خلق العلم والفن والتنظيم الاجتماعي الذي يعيش في كنفه. اما الانسان او الأمة التي تخضع للقضاء والقدر، ايّاً كان الاسم الذي تطلقه على القضاء والقدر، ولا تحارب في سبيل حريتها، فسرعان ما تفقد حتى الطيف الضئيل من الحرية الذي تتمتع به، قاضية بذلك على كل ما يطبعها من المزايا الانسانية. فأنا اذن حريتي واختياري، ومن سلب مني هاتين الصفتين سلبني بكاملي

تفرض هذه الحرية الحقيقية وجود ارادة في الانسان تمكنه من اختيار ما يختار. فالانسان يريد هذا او ذاك من الأشياء، او لا يريده. واذا حذفنا مظاهر الارادة من الحياة: مظاهر العناد والتشبث، مظاهر الامتلاك الشخصي، والتعبير الشخصي، اذا حذفنا تعارض الارادات بعضها مع بعض، واشتباكها بعضها ببعض، وصراعها الدائم بعضها مع بعض، بين افراد الأسرة الواحدة. وبين الأصدقاء وبين أفراد الأمة الواحدة، وعلى المسرح الدولي العام، اذا حذفنا جميع هذه المظاهر الارادية من الوجود، حذفنا معها الانسان نفسه. فأنا اذن ارادتي الشخصية، ومن قتل في ارادتي، قتلني بكليتي

الانسان يحب ويتفانى في حبه. وتقول قصة إن الله خلق العالم بدافع حبه. فقد ينمحي الحب الطاهر بنزعته المهذبة دخلت الى حيات مقدسة من تكوين انساني لا يفقه. الانسان العضوي لا معنى له، ولا يعرف الانسان التاريخي عنه شيئاً، ولا يقدر الانسان العصري أن يتصوره، ولا الانسان الاشتراكي ان يشترك فيه، ولا يسمح للانسان القومي بأن يدخل الى قدسه، ولا للناس بأن يقولوا عنه كلمة نابية واحدة. واذن فأنا حبي، ومن يسلب مني حبي، يسلبني بكاملي

يكون الانسان انساناً بالقدر الذي يقدر به الثقافة ويضحي في سبيلها. والانسان الذي لا يفهم ولا يريد أن يفهم العلوم والروح العلمية الخالقة لهذه العلوم، الانسان الذي لا يقدر

ولا يحاول أن يقدر الفنون والروح الشبيهة الخالقة لهذه الفنون ، الانسان الذي يهرب من الفلسفة الأصيلة خائفاً متخضخضاً ، هذا الانسان ليس في الحقيقة بانسان . والأمر اني لا أعشق الثقافة والروح لا تعتبر في الحقيقة غير جانب وافر من امكان الانساني ، مهما تكن قوية في جسدها حادة في غريزتها ، ممكنة في تعرضها . وإذن فأنا تقديري للروح ومظاهرها ، وأنا كذلك نتاجي الروحي ، ومن أضعف في هذا التقدير ، ووقف سداً منيعاً في سبيل النتاجي الروحي ، قضى علي بكاملي

الانسان إما روح متمردة وإما قلب منسحق . والروح المتمردة تتجه في كيانها نحو الفناء لأنها تبغض الوجود . فاذا جابهت بكيان قائم رمت في الحال الى هدمه أو نقضه . أما القلب المنسحق فيفرح لكل كيان ولا يتمنى له الا اطراد الرسوخ . القلب المنسحق إيجابي في رغبته بنّاء في عمله ، ولذلك جزاؤه في النهاية رؤية الحقيقة كما هي . وإذن فأنا روحي المتمردة او قلبي المنسحق ومن يُفنِ في احدى هاتين الامكانيتين ، يُفنِ كياني بكامله

فوق هذه التراكيب النهائية المكونة لحقيقة الانسان يوجد تركيب هام يتعالى عليها جميعاً ويصهرها في بوتقة واحدة . هذا التركيب الأخير هو كآبة الانسان العميقة ووحدته المتأصلة . فالانسان كئيب الى أقصى أبعاد الكآبة ، وحيد الى أقصى حدود الوحدة . ولا يفضح كآبته شيء أكثر من ضحكته هذه الصفراء التي يكذبها بصراخ عنيف كل تقطيع من تقاطيع كيانه . أما وحدته فكان يحاول أن يهرب منها ملتجئاً الى هذه الاجتماعات الأخوية والسهرات المسلية حيث يتناجى الأصدقاء في جو ثقة وصفاء ، لكنها ازدادت تأصلاً وصراخاً . الانسان لا يكون انساناً إلا إذا عرف كيف يكوّن وحدته الكئيبة ، ولا يكوّن الانسان وحدته الكئيبة إلا إذا أثار مشاكله الكآبية الأخيرة وحدّق فيها تحديقاً خالصاً من أي خوف أو وجل . في حضن هذا التحديق الكئيب يقتبس الانسان لهب الخلق الخالد ، خالقاً كل ما يشع في كيانه من عمق ونور ، وما الخالقون في التاريخ إلا أولئك الذين عرفوا سر الأسرار المكنون منذ الأزل ، أعني أن الخلق الروحي أثر تفجر الكآبة الحزينة في النفس الصادقة . فمن يعش كآبته كأقدس شيء في كيانه ، من يعرف كيف يحمل صليبها ويسمر عليه ، من يصبر عليها في غير ثورة ولا هرب حتى تنقلب رجعاً سحيقاً من الفرح الداخلي ، من يفهم هذه الأسرار الخفية ويعمل بها ، يبني من نفس كآبته ذاتها فرحاً وجبروتاً يقهر بهما العالم كله . فالانسان إذن فوق أي شيء ، هو كآبته البليغة ، ومن لم يدرك الدموع في تنهدات لا يسمع غورها غير الله لم يختبر بعد مرارات الكآبة . وإذن فأنا أرفض أن تكتشف دموعي ، إذ كل دمعة خاصة تفجر مني تثبت لي إنسانيتي وتحملني أملاً لأن أرث رموزات الكآبة المتصاعدة في التاريخ